إحياء المماليك

للخلافة العباسية

obeikandl.com

obeikandl.com

إحياء المماليك للخلافة العباسية

قام المماليك بإحياء الخلافة العباسية في القاهرة ، وكان لهذا العمل نتائج هامة بالنسبة لتاريخ مصر والعالم الإسلامي ، ذلك أن العالم الإسلامي أخذ يشعر بفراغ كبير بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد على يد التتار سنة ١٢٥٨م ، إذ أمسى المسلمون بدون خليفة ، وهو أمر لم يعتادوه منذ وفاة رسول الله ﷺ .

وكان السلطان بيبرس هو صاحب فكرة إحياء الخلافة العباسية في القاهرة، وذلك أن الأمير علاء الدين البندقدار نائب السلطان الظاهر في دمشق كتب إليه يخبره بأن أحد بني العباس – وهو الأمير أبو القاسم أحمد بن الخليفة الظاهر أبو نصر محمد بن الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء لدين الله العباسي – وصل إلى دمشق ومعه جماعة من عرب بني مهنا يشهدون على صحة نسبه ، وأنه يريد أن يلحق بالسلطان الظاهر بيبرس بالقاهرة، وكان ما إن وجد بيبرس فرصته في مجيء ذلك الأمير، فرد على الأمير البندقدار يأمره بالقيام على خدمته وتعظيم حرمته ، كما طلب منه أن يرسل معه حراسًا إلى مصر .

وفي القاهرة أُستقبل الأمير أحمد استقبالًا حافلًا، فخرج السلطان للقائه ومعه الوزير وقاضي القضاة وجمهور كبير من أعيان القاهرة وأهلها ، وكان يوم دخوله القاهرة من الأيام المشهودة، إذ سار في شوارع القاهرة، وقد لبس الشعار العباسي، حيث صعد قلعة الجبل وهو راكب،فأنزله السلطان في مكان جليل قد أُعد له، وبالغ في إكرامه والاحتفاء به.

ولم يمض على وصول الأمير أحمد العباسي ثلاثة أيام حتى عقد السلطان بيبرس مجلسًا بقاعة الأعمدة في القلعة لمبايعة الأمير العباسي بالخلافة ، وقد حضر ذلك المجلس جمع حافل من القضاة ونواب الحكم والعلماء والفقهاء

وأكابر المشايخ والتجار وأعيان الناس، في حين جلس السلطان متأدبًا إلى جانب الأمير أحمد ، فلم يستخدم كرسيًا أو مرتبة أو مسندًا ، ولما اكتمل الجمع شهد العربان وخادم من البغاددة بصحة نسب الأمير أحمد العباسي، وأقر هذه الشهادة أيضًا بعض القضاة والفقهاء ، وقبل قاضي القضاة تاج الدين تلك الشهادة وسجلها ، ثم بايع الأمير أحمد بالخلافة.

ولم يكد قاضي القضاة يفعل ذلك حتى تقدم السلطان بيبرس وبايعه أيضًا على كتاب الله وسنة رسوله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والجهاد في سبيل الله ، وأخذ أموال الله بحقها ، وصرفها في مستحقها ثم بعد ذلك بايع جميع الناس على اختلاف طبقاتهم الخليفة الجديد، كما كتب بيبرس إلى سائر الملوك والنواب خارج مصر لكي يأخذوا البيعة للخليفة العباسي الجديد الذي لقب بقلب المستنصر بالله ، وأمرهم بأن يدعى له على المنابر ، ثم يدعى للسلطان بعده ، وأن تنقش النقود باسمهما ، أما الخليفة العباسي الجديد فقد قام بدوره بتقليد السلطان الظاهر بيبرس البلاد المصرية، ومعنى ذلك أن سلاطين المماليك أصبحوا في نظر الناس منذ ذلك الوقت أصحاب حق شرعي في الحكم بعد أن غدوا متمسحين ببيعة الخلافة العباسية.

وكانت هذه المراسيم في يوم الاثنين ثالث عشر جمادي الأولى

سنة ٦٥٩هـ / ١٢٦١م ، وفي يوم الجمعة التالي مباشرة صلى الخليفة بالناس في جامع القلعة ، ودعا في الخطبة للملك الظاهر بيبرس فسُر الظاهر بذلك ، ونثر عليه قطعًا كثيرة من الذهب والفضة ، وهكذا قضى الخليفة المستنصر بالله أيامه في هناء بين ربوع القاهرة، فتارة يصحبه السلطان للنزهة في النيل ومشاهدة السفن الحربية وهي تقوم بمناوراتها وألعابها على صفحة الماء، وطورًا يخرج مع السلطان إلى بعض البساتين خارج القاهرة، ثم إن الظاهر بيبرس لم يقنع بكل ذلك، وإنما اراد أن يجمع جميع أمراء المملكة ويقرأ عليهم تقليد الخليفة للملك الظاهر في اجتماع عام ، وكان أن عقد ذلك الاجتماع في المطرية ، وسمع جميع الأمراء تقليد الخليفة للسلطان الديار المصرية والبلاد الشامية والديار بكرية والحجازية واليمنية والفراتية وما يتجدد من الفتوحات غورًا ونجدًا.

ولما فرغ القاضي فخر الدين بن لقمان – صاحب ديوان الإنشاد – من قراءة ذلك التقليد ، أحضر السلطان مظاهر خلعة السلطنة، وهي جبة بنفسجية اللون وعمامة سوداء وطوق من الذهب وسيف، فلبسهم بيبرس ، واتجه موكب كبير نحو القاهرة، فدخلها من باب النصر، وشق القاهرة إلى القلعة وسط الزينات والأفراح، وضج الخلق بالدعاء بخلود أيامه وإعزاز نصره[1].

(١) «بدائع الزهور لابن إياس» (١/ ١٠١- ١٠٢) نقلًا عن : . «العصر المماليكي في مصر والشام»، ص ٣٥٧.

وهكذا غدت القاهرة المركز الجديد للخلافة العباسية، وظل الخلفاء العباسيون يتعاقبون واحدًا بعد آخر في مصر حتى الفتح العثماني لهذه البلاد سنة ١٥١٧م، وجدير بالذكر أن السلطان الظاهر بيبرس وضع قواعد السياسة التي اتبعها سلاطين المماليك بمصر تجاه الخلافة العباسية، إذ لم يلبث الخليفة العباسي أن أصبح شبه محجور عليه في القاهرة، فلا يتصل به أحد من المسؤولين في الدولة دون إذن السلطان، وبعبارة أخرى فإن الوضع الذي استقر عليه حال الخلفاء العباسيين في مصر، صار أن يفوض الخليفة الأمور العامة إلى السلطان، ويكتب له عهدًا بالسلطنة ويُدعى للخليفة قبل السلطان على المنابر، وفيما عدا ذلك يستبد السلطان بكافة شؤون الدولة، في حين يقنع الخلفاء بالتردد على أبواب السلاطين والأمراء لتهنئتهم بالشهور والأعياد.

وقد عبَّر المقريزي عن ذلك الوضع فقال عن الخليفة العباسي في القاهرة: «إن خلافته ليس فيها أمر ولا نهي، وحسبُه أن يقال له أمير المؤمنين»[1].

(١) «المواعظ» (٣/ ٣٩٤)، نقلًا عن المصدر السابق.

خريطة العالم الإسلامي في عصر المماليك